بــلاغة النـــــص التـــراثي
البناء الحجاجي لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم في الأنصار

بن عمارة محمد جامعة عبد الحميد ابن باديس -مستغانم

ملـخص:

تهدف هذه المقالة إلى الكشف عن فاعلية الحجاج في النص الخطابي باعتباره عملية اتصالية، قوامها الحجة المنطقية وغايتها إقناع الآخر ودفعه نحو الإنجاز، وقد ركزتُ في هذه الدراسة على بُعدين أساسيين هما:

1- مفهوم الحجاج في الدراسات البلاغية واللغوية والتداولية مع التطرق لآلياته وتقنياته الخطابية التي تحقق عملية الإقناع والتداوّل.

2- البعد الإجرائي المتمثل في دراسة حجاجية لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم في الأنصار باعتبارها نصاً حجاجيا وسياسياً وظُفت فيه عدّة تقنيات خطابية تروم إقناع المتلقي واستمالته وتوجيهه، وحمله على الإذعان.

الكلمات المفتاحية: **البلاغة** –الخطابة – الحجاج – الإقناع -التداول -النبي صلى الله عليه وسلم-الأنصار

Abstract

The old Arab rhetoric raised a number of critism in the light of contemporary western rhetorical research most nootably the extent of the legitimacy of the refutation of the argumentations of the old Arab rhetoric. Which was excerpted from the genre of poetry as the transcendent genre in arabe culture on different genres and literary works. Therefore this intervention attempts to bringè about the disscussion on genre on the one hand. On the other hand. It advocates the systematic imbalance arabic rhetorics suffered from in generalizing its various procedurl mechanisms on literary genres with regards to taking account the rating by applying the theory of literary text when dealing with rhetoric and taking into account the genres to which they belong this is what we will try to address in the practical part. the title arabic rhetorics between poetic study. Rhetoric in the the prophète Mohamed peace be upon him

تمهيد

تتناول هذه المقالة محاولة في التحليل البلاغي للخطاب النثري. وقد وقع الاختيار على الخطاب النثري بدل الشعري بغيّة اكتشاف البعد الوظيفي للصورة البلاغية في الخطابة التي تختلف عن تلك الموجودة في الشعر، وتنحى الصورة البلاغية في الخطابة منحى **للإقناع**[1] **persuasion الذي** يستعين بترسانة من الحجج التي تهدف إلى إحداث تغيير عند المتلقي ودفعه نحو العمل، عكس الخطاب الشعري المتسم بالتخييل في بعده التداولي.

1- مفهوم الحجاج في الدراسات البلاغية واللغوية المعاصرة

لقد عرّف "بيرلمان وتيتكاه" **الحجاج argumentation** بعدّة مفاهيم، انطلاقا من موضوعه الذي هو **(درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو تزيد في درجة ذلك التسليم)**[2] مفهوم ارتبط بمختلف أنواع الحجج المودعة في الخطاب، والتي تعمل على **إقناع persuasion** المتلقي بما يعرض عليه من أفكار، أو تدعيم تسليمه بأفكار مسبقة عنده كانت محلّ شكٍ، مفهوم ركزّ فيه بيرلمان على ضرورة البعد العقلاني لحجاج وعدم اعتباطيته وتلاعبه بعواطف المخَاطب، لأن الحجاج في نظرهما معقولية وحرية، يستطيع المتلقي من خلالها الاعتراض على ما يُعرض عليه من أفكار، وذلك عكس الاستدلال الصارم الذي يجعل المخاطب في حالة ذهول وخضوع واستلاب[3] ويعرفه في موضع آخر انطلاقا من بُعده **التداولي pragmatique**[4] بقوله **(غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع حجاج ما وُفّق في جعل حدّة الإذعان تُقوِى درجتها لدى السّامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب – إنجازه أو الإمساك عنه- أو ما وُفِق على الأقل في جعل السامعين مهيئين إلى ذلك العمل في اللحظة المناسبة)**[5] تعريف ركزّ فيه بيرلمان على الغائية لا الماهية، إذْ نلمحه يقرن الحجاج بالإقناع الذي يُعد جوهر العملية الحجاجية وغايتها المنشودة، والذي من خلالها يُقدم المتلقي على فعل ما أو يُمسك عنه، أو يتهيأ للقيام بعمل ما لذلك يُدرك الحجاج بوصفه مفهوما براغماتياً، انتقل به بيرلمان من دائرة الخطاب والتلفظ إلى دائرة ما ينتج عن الخطاب بدفع المخَاطب إلى الفعل والعمل. فالحجاج علاقة تخاطبية تفاعلية بين المخاطِب والمخاطَب مبنيّة على أسس عقلية طابعها العقلانية وحرية الاختيار.ويقول في موضع آخر **(ليس الحجاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثمّ اختيار أحسن السبل لمحاورتها، والإصغاء إليها، ثمّ محاولة حيازة انسجامها الايجابي l'adhésion positive والتحامها مع الطرح)**[6] مفهوم ركّز فيه بيرلمان على ذهنية المتلقي، التي لا يستطيع المحاجج استمالتها بدون معرفة طبيعة تفكيرها ومواطن ضعفها.

---

[1] **إقناع persuasion** هو قصد المتحدَّث إلى إحداث تغيير في الوقف الفكري أو العاطفي عند المتلقي، هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، تر، محمد العمري، ص102

[2] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، لبنان، بيروت، ط2، 2007، ص 25

[3] يُنظر، عبد الله صولة، في نظرية الحجاج – دراسات وتطبيقات – مسكيلياني للنسر والتوزيع، تونس، ط1، 2011، ص11

[4] **pragmatique هي** دراسة المعنى التواصلي، أو معنى المرسل، في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز ما قاله، يُنظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية –، ص22

[5] عبد الله صولة، في نظرية الحجاج – دراسات وتطبيقات – ص13

[6] محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ص68

وإن كانت رؤية بريلمان للحجاج رؤية بلاغية شبه منطقيّة، فقد تناوله أزفالد ديكرو من وُجهة لغوية، رأى من خلالها بأن اللغة تحمل في جوهرها وظائف حجاجية، تأتي من بنية الأقوال اللغوية، لا من مضمونها الإخباري[7] فهي بذلك تعالج ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تُمَثِل مكونا أساسيا لا ينفصل عن معناه تجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يُوجه قوله وُجهة حجاجية ما. [8] فاللغة تكتسي قوتها الحجاجية من خلال العلائق التي تنشئها والتسلسل المنطقي التي تخضع له بفعل العقل الذي تستند إليه في بنيتها التركيبية.

ويتوفر الخطاب الحجاجي على بعض العلامات التي تحدّد وُجهته الحجاجية، وهاته العلامات هي عبارة عن آليات تشتغل داخل الخطاب بصور مختلفة، فتكون تارة عبارة عن عوامل حجاجية، أو روابط حجاجية، أو بعض الظواهر كالقسم أو الاستفهام أو التضمين أو الاقتضاء.... إلخ[9] فالاهتمام في هذه المقاربة يكون مرّكزاً بدرجة كبيرة على الوسائل اللغوية، والإمكانات التي تتيحها اللغة الطبيعية للمتكلم والتي تساعده بدورها على توجيه خطابه نحو مقاصده التي يبتغيها. فاللغة منطقها، أو ما يسمى بالقواعد الداخلية للخطاب الذي يعتمد على آليات تسلسلية استنتاجيه ترتيبية تهدف إلى التأثير والإقناع[10]

2- التحليل الحجاجي لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم :

نروم هنا لإبراز أهم المقومات التي ساهمت في تكوين بلاغة الخطبة النبوية، وقد رأينا أن نتخذ خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في الأنصار يوم حنين متناً تمثيلياً يُتيح لنا الكشف عن طبيعة البلاغة التي تُفرزها الخطب النثرية، التي تخلّقت في سياقات تواصلية تتسم بالوظيفية والقصدية، وهذا ما دفعنا إلى فحصها وتحليها وفق مقاربة بلاغية تتيح لنا الكشف عن مصادر بلاغتها الحجاجية، والكيفية التي انبنت بها آلياتها الإقناعية.

أ/3-السياق التاريخي للخطبة

إنّ بناء السياق في النظرية الحجاجية المعاصر ضرورة لا تنفصل عن دراسة تشكلات النص وتقنياته الخطابية، ولذلك رأينا أنه من الضروري إعادة بناء السياق التاريخي للخطبة، بناءً يتوافق مع الرؤية البلاغية المعاصرة، والتي تنادي بصياغة جديدة لسياقات النصوص القديمة، وذلك لاكتساب (**معرفة جديدة بالمتكلم والمخاطب وطبيعة العلاقة بينهما والسياق المكاني لتداول الخطاب**)[11].

قال ابن هشام، حدثني زياد ابن عبد الله، قال، حدثنا ابن إسحاق، قال: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا، في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن للأنصار منها شيء، وجد هذا الحيّ من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالةُ حتى قال قائلهم، لقد لقيّ والله رسول الله قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إنّ هذا الحي من الأنصار قد

[7] يُنظر، رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، عالم الفكر، الكويت، مج، 34، سبتمبر، 2005 ص255.

[8] يُنظر، شكري البخوت، نظرية الحجاج في اللغة، مقال ضمن كتاب، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، حمادس صمود، ص352.

[9] يُنظر، رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، ص225.

[10] أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط، 1، 2006، ص 8

[11] عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السيابي (نموذج إرشادي)، ضمن كتاب بلاغة النص التراثي، إشراف، محمد مشبال، دار العين للنشر، الاسكندرية، 2013، ص26

وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسّمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء[12]

ومن هنا نستنتج أنّ لهذه الخطبة سياق خاص أُنتجت في ضوئه، سببه أنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم لمَّا قضى من غزوة حنين وجاء وقت تقسيم الغنائم التي غنِموها من المشركين، أعطى للمؤلفة قلوبهم وكانوا أشرافاً من أشراف الناس، يتألفهم ويتألّف بهم قومهم[13] إلى الإسلام، ولم يُعطي للأنصار شيئاً من تلك الغانم التي غنِموها من المشركين، فوجد الأنصار في أنفسهم شيئا من ذلك، ونزغ الشيطان إلى قلوبهم، ودفعوا بزعيمهم سعد بن عبادة للتدخل عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيما صنع، فإنتاج الخطبة تمّ في سياق عام يتشكلّ من النبي صلى الله عليه وسلّم باعتباره (المرسل) وسعد بن عبادة (كوسيط ومتلقي الأول) والمؤلفة قلوبهم (باعتبارهم مساهمين في صناعة الخطبة ومحورها) والأنصار (كمتلقين للخطاب).

ب/3-الخطبة

قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن عبادة اجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فخرج سعد وجمع الأنصار في تلك الحظيرة...قال النبي صلى الله عليه وسلّم: ما قالةً بلغتني عنكم، وجِدةً وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم أتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم. قالو بلى الله ورسوله أَمَنَّ وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نُجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل، قال صلى الله عليه وسلّم: أما والله لو شئتم لقلْتم، فلصدَقْتُم ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذِبا فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم، في لعاعة من الدنيا تألّفت بها قوما ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالهم؟ فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرئً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الناس شعباً لسلكت شِعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالو: رضينا برسول الله قِسما وحظاً، ثمّ انصرف رسول الله وتفرقوا[14].

ح/3- حجج الإيتوس (الخطيب الرسول صلى الله عليه وسلّم)

تستمد بعض الخطب قوتها الحجاجية من الصورة الحسنة التي يرسمها الخطيب لنفسه، **(ذلك أنّ الصورة التي يُكونها المتلقي عن القائل تساهم في تعضيد القول وترفع من فعاليته الإقناعية)**[15]

فالصورة التي قدّمها النبي صلى الله عليه وسلّم في هذه الخطبة أكسبته شرعية ومصداقية، جعلت من خطابه نافذا ومقنعاً، وذلك من خلال تذكير الأنصار بفضله عليهم، باعتباره كان سبباً في هدايتهم بعد ضلالهم، وغِناهم بعد

[12] يُنظر، ابن هشام الأنصاري، السيرة النبوية، تح وتع، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط3، 1990، بيروت، ج،4/ص138

[13] نفسه، ص 131

[14] نفسه، ص 138

[15] مصطفى الغرافي، بلاغة الخطبة، ضمن كتاب بلاغة النص التراثي، إشراف، محمد مشبال، دار العين للنشر، الاسكندرية، 2013، ص50

فقرهم، وتآخيهم بعد أن كانوا أعداء، فهذا الفضل لا يمكن أن يُنكره الأنصار، فتسخير مثل هذه الإيتوسات يساعد على تحقيق المقاصد الإقناعية التي يرجوها النبي صلى الله عليه وسلّم، بالمقابل، وعلى سبيل الإيتوس التقابلي، قام النبي صلى الله عليه وسلّم بذكر فضل الأنصار عليه، وذلك من خلال نصرتهم إياهُ، وحمايته، وتصديقه، فقوته صلى الله عليه وسلّم مستمدّة من الله ومن الأنصار، فالإيتوس التقابلي يُبين عن عدم إنكار النبي لفضل الأنصار، ويمكن تلخيص الإيتوسات المستعملة في الخطبة:

- شخصية الخطيب -النبي صلى الله عليه وسلّم-باعتباره مؤيدًا ومؤزرا من عند الله، مكانة ساهمت في تلفي الخطاب وعدم معارضته، قبول يؤدي بالضرورة إلى تحقيق عملية التداول الإقناع.
- التذكير بفضله على الأنصار باعتباره كان سبباً في هدايتهم وتآخيهم.
- توظيف إيتوس تقابلي أقرّ من خلاله النبي صلى الله عليه وسلم بفضل الأنصار عليه، فوضعه دلك في منزلة الرجل الغير نمكر لفضهم، ممّا ساعد في خلق آلية إقناعية رفعت من شأن ومكانتِهم عند النبي صلى الله عليه وسلّم، والتي لا تقاس بالغانم عكس المؤلفة قلوبهم.

فالايتوس في البيان النبوي -كما نعلم-مسلّم به سلفاً، نظراً لمكانة النبي، وقداسة نصوصه الخطابية التي ينطق بها، فهو الذي لا يتكلم إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلاّ بكلام قد حفّ بالعصمة[16]. كما يقول الجاحظ، لذلك نجده يطلع بوظيفة حجاجية من خلال الصور التي رسمها النبي صلى الله عليه وسلّم لنفسه.

وبهذا يُصبح الإيتوس معطى سابق ينهض على منزلة الخطيب في المجتمع، وما يشتهر به من أخلاق وسمعة طيبة بين الجمهور، ولاسيما في المجتمعات الشفاهية التي لم ترق للتدوين تجد نفسها مقيّدة بالشخص أكثر ممّا هي مقيّدة بالحجج والبراهين[17]

ج/3 البناء الحجاجي للغوس النبوي

اهتمت البلاغة في ثوبها المعاصر بمجمل الآليات الخطابية الإقناعية المكونة للخطاب، سواء كانت بلاغية أو منطقية أ والغوية والتداولية، وفي ضوء هذه المقاربات سنحاول استجلاء الإمكانيات الحجاجية المسُخرة في خطبة النبي صلى الله عليه وسلّم، آمِلين الكشف عن التقنيات المستعملة في عمليتي لإقناع الإقناع والتداول.

أ- الوقائع le faits

تمثل ما هو مشترك بين عدّة أشخاص أو بين جميع الناس بحيث لا تكون عرضة للدّحض أو الشك[18]، وقدْ استعمل النبي صلى الله عليه وسلّم هذه الوقائع كنقطة انطلاق لحجاجه، وتتمثل في قوله: **(ألم أتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم)** فكانت الاستجابة بقولهم **(قالو بلى الله ورسوله أَمَنَّ**

[16] يُنظر، أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبين، تح، درويش جودي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ج2/ص244

[17] يُنظر، إيمانويل دانبلون، بلاغة الاحتجاج، تر، حسن طالب، مجلة علامات المغربية، ع، 23- 2005، ص130

[18] عبد الله صولة، في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، مسكيلياني للنشر، ط، 1، 2011، ص24

وأفضل)، فالوقائع المستعملة من طرف النبي ليست عرضة للشك ولا للمساومة من طرف الأنصار، لذلك نجد التسليم الفوري من قِبل الأنصار.

ب- القيّم les valeurs

إنّ القيم عليها مدار الحجاج بكلّ ضروبه...وغداء أساسيا يُعوّل عليه في جعل السامع يذعن لما يُطرح عليه من آراء[19] لذلك نجد بعض الخطب تميل إلى تحقيق الإقناع استنادا إلى منظومة من القيّم السائد في المجتمع باعتبارها أفكار مشتركة تحظى بالإجماع، لذلك نجد أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم يبني نسق خطابه على مجموعة من القيّم، وهي (الضلال، الهداية، الفقر، الغنى، العداوة، المحبة) قيّم اتسمت بالتقابلية في بناءها، ممّا أكسبها قوّة ونجاعة ونفاذ في ذهن المتلقي، إذْ عمد النبي صلى الله عليه وسلّم إلى تذكير الأنصار بما كانوا عليه من قيّم شنيعة، وما أصبحوا عليه من قيّم رفيعة.

ج-التراتبيّات

يعتمد الحجاج على تراتبيّات تكون مجردّة تارةً، وملموسة تارة أخرى، مثل الإنسان أسمى من الحيوان، والآلهة أسمى من الإنسان[20]

وقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلّم مثل هذه الحجج التي تخضع لمنطق التراتب في قوله (ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالهم؟) فتخييرهم بين الرجوع بالغنائم والرجوع برسول الله وضعهم في حالة تسليم وخضوع مطلق، لأن منطق التراتب يقتضي اختيار النبي صلى الله عليه وسلّم باعتباره أفضل من الغنائم، لذلك حملت هذه الحجة المُساقة الأنصار على الاقتناع والإذعان بوجهة نظر الرسول صلى الله عليه وسلّم في تقسيم الغنائم.

د-الحجج شبه منطقية التي تعتمد البُنى المنطقية

1- التناقض وعدم الاتفاق incompatibilité:

وهي أنْ تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتين إحداهما نفي لأخرى ونقض لها، بحيث يتحتّم على المتلقي اختيار إحدى الأطروحتين وإقصاء الأخرى[21]

ونجد النبي صلى الله عليه وسلّم يضع الأنصار أمام أطروحتان متعارضتان، تقتضي من الأنصار اختيار واحدة فقط، ويتجلى ذلك في قوله: (ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالهم؟)، فهذا الصنف من الحجج يضع المتلقي أمام خيار واحد، يُقصي بموجبه الخيار الآخر، لذلك نجد أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم يستفز الأنصار بوضعهم أمام موقف خياراته محدودة إن لم نقل أنها منعدمة، فالنتيجة بالطبع ستكون اختيار العود بالنبي صلى الله عليه وسلّم.

---

[19] نفسه، ص26

[20] الحسين بنوهاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديدة، ط1، ليبيا، 2014، ص48

[21] عبد الله صولة، في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، ص42

2- الحجة القائمة على العلاقة التبادلية (règle réciprocité)

تستمد الحجج ذات العلاقات التبادلية قوتها من مبدأ تسوية المطابقة بين حالتين مترابطتين داخل علاقة ما[22]. وقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلّم مثل هذه الحجج لتِبيين فضله على الأنصار، وتبيِين فضلهم عليه من باب العدل (ألم أتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله... والله لو شئتم لقلْتم، فلصدَقْتُم ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذِبا فصدّقناك...) فقد ماثل النبي صلى الله عليه وسلّم بين حالة الأنصار وحالته، فكانت الهداية من الله ومنه، والنصرة من الله والأنصار، فالفضل متبادل ذو طابع شبه منطقي تبادلي بين الخطيب والمتلقي. ولو أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم ذكر فضله على الأنصار ولم يذكر فضلهم عليه لانهارت الحجة، وضعفت فعاليتها.

3- الحجة السببية البراغماتيّة

هو حجاج يرمي إلى أنّ يُستخلص من حدث مّا وقع، سبب أحداثه[23] وقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلّم هذا النوع من الحجاج في قوله: (أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم، في لعاعة من الدنيا تألّفت بها قوما ليُسلموا) فنجد النبي صلى الله عليه وسلّم يُبرر إعطائه الغنائم للمؤلفة قلوبهم بحجة أنه يُريد إسلامهم إيمانهم، أي اختزلت السبب في نتائجه المترتبة عنه، وقد تحقق ذلك عن طريق الرابط السببي (اللام) الذي ساعد على المرور من أسباب -توزيع الغنائم على المؤلفة قلوبهم- إلى النتائج -المتمثلة في إسلامهم-، وهذا ما ساهم في تثمين تصرف النبي صلى الله عليه وسلّم. ويمكن الاصطلاح على هذا النوع من الحجج بحجج **الغائية**[24] والتي تؤسس على الفكرة القائلة بأنّ قيمة الشيء مرتبطة بالأهداف المراد الوصول إليها.

4- حجة الاتجاه l'argument de direction

يستعمل هذا النوع من الحجج عندما تكون هناك مسافة تفصل بين مسلمات المستمع ودعاوى الخطيب، فيتم التقريب بينهما بالتدريج، فبدل الانتقال مباشرة من (أ) إلى (د)، يقوم الخطيب بنقل المخاطَب إلى (ب) ثمّ إلى (ج) ليصل إلى (د)[25] ونلتمس هذا النوع من الحجج في الانتقالات التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلّم في خطابه، الذي مرّ عبر مراحل، بدأ فيها بتذكر الأنصار بفضله عليهم، ثمّ انتقل إلى تذكيرهم والإقرار بفضلهم عليه، ثمّ ذكرهم بعودته في رحالهم، وعودة المؤلفة قلوبهم بالشاة والبعير، ثمّ أخيراً برّر لهم تصرفه الذي كان يهدف من وراءه إلى تأليف القلوب والدعوة إلى الاسلام. فالحجج أو المقدمات التي اعتمدها النبي صلى الله عليه ويسّم كلّها تسير في اتجاه واحد يهدف إلى إقناع الأنصار بالقرارات التي اتخذها في حق الغنائم.

[22] يُنظر، الحسين بنوهاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص64

[23] عبد الله صولة، في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، ص 50

[24] سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، عالم الكتب الحديث، ط، 1، الأردن، 2011، ص221

[25] يُنظر، الحسين بنوهاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص75

5- الاستدلال بواسطة التمثيل l'analogie

يُعد الاستدلال آلية مهمة يتوسل بها الخطاب الحجاجي بهدف تحقيق عمليتي الإقناع والتداول، وغالبا ما يكون عن طريق **(استنباط يُراد منه التدليل على صحة نتيجة، اعتمادا على مقدمات معترف أو مسلم بصحتها)**[26] فالاستدلال عملية عقلية محضة، يتم من خلالها الانتقال من مقدمات مسلم بها، إلى نتائج من شأنها إثبات رأي ما والدفع للاقتناع به.

والمتأمل في خطاب النبي صلى الله عليه وسلّم في الأنصار، يجد مجموعة من الاستدلالات التي اعتمد النبي عليها في بناء خطابه وتنظيمه وفق أسس عقلية محضة، من ذلك قوله: (ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالهم؟) فالنبي صلى الله عليه وسلّم اعتمد هنا على الاستدلال الخطابي ذو النتيجة المضمرة، ويمكن التمثيل لها بـ :

المقدمة الكبرى ـــــــــ العودة بالشاة والبعير

المقدمة الصغرى ـــــــــ العودة برسول الله صلى الله عليه وسلّم

النتيجة (مضمرة) ـــــــ العودة برسول الله أفضل من العودة بالغنائم

فالعملية هنا ذات طابع استدلالي محض، أُضمرت من خلاله النتيجة لأنها معروفة وبديهية تمثلت في أفضلية عودة الأنصار برسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى رحالهم. فتسخير مثل هاته الآليات الاستدلالية في الخطاب من شأنه تقوية طرح الخطيب، وذلك بتحقيق الأهداف التداولية للخطاب بدفع المتلقي نحو اعتقاد ما يطرح أمامه من أفكار والتسليم بها. وهذا ما تحقق في الأنصار عندما رضوا بقسمة النبي صلى الله عليه وسلّم فيهم.

6- البعد الحجاجي لخاتمة الخطبة

تأتي الخواتيم في الكثير من الأحيان موافقة لموضوع الخطبة وغرضها، فهي جزء الذي يُلخص المقاصد التي رسمها الخطيب لخطابه، لذلك تُعد من الآليات التي يحصل بها التأثير والإقناع.

وقد اختتم النبي صلى الله عليه وسلّم خطبته في الأنصار بالدعاء لهم بقوله: **(اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار)** فجاءت موافقة لمضمون الخطبة في موضوعها العام، مبيّنة لفضل الأنصار ومكانتهم التي يحضوْن بها عند النبي صلّى الله عليه وسلّم، ويتجلى بعدها الحجاجي في أنها آخر ما قيِل، وآخر ما يرسخّ في ذهن المتلقي، فإذا كان للخاتمة وقع حسن انسحب ذلك على باقي الخطاب، وإذا كان لها وقع سيء ساء الأثر وتعثر المقصد[27].

خ/3 الموجهات اللغوية الحجاجية في الخطبة.

1- البعد الحجاجي للموازنات الصوتية في الخطبة

[26] محمد النويري، الأساليب المغالطية –مدخل إلى نقد الحجاج-، مقال ضمن كتاب، الحجاج في التقاليد الغربية، حمادي صمود، ص431

[27] يُنظر، حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح ; محمد الحبيب ابن خوجة، ص285

تكشف هذه الخطبة عن ثراء صوتي إيقاعي مصدره تناظر المكونات الصوتية محققةً بذلك توازنًا تركيبيا تام، فينجم عن هذا التركيب طاقة صوتية لافتة قائمة على التعارض والتضاد بتوظيف آليتي الطباق والمقابلة، وكان ذلك على النحو التالي:

ضلالاً ـــــ الهداية

العداء ـــــ الألفة

الفقر ـــــ الغنى

الكذب ـــــ الصدق

الخذلان ـــــ النصرة

وقد استعان النبي صلى الله عليه وسلّم بمثل هذه البنية التناظرية لإكساب خطابه قوةً تأثيرية تساعد على ترسيخ مضمون الخطاب، وتحقيق المقصد التداولي الإقناعي الذي سطّره لخطابه. وذلك من خلال التكافؤ في أحدثه في مستوى البنية الخارجية لخطابه.

كما لجأ النبي صلى الله عليه وسلّم إلى بلاغة السجع والازدواج، وذلك نظراً لما تحتوي عليه من طاقة صوتية إيقاعية تضمن التأثير في المتلقي من خلاله حمله على الانتباه والتفاعل مع ما يُعرض عليه.

وتتجلى تقنية السجع والازدواج في قول النبي: (أتيتنا مكذِبا فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأسيناك) فما يُميّز الفقرة هنا هو قيامها على نظام الموازاة بين التراكيب النحوية، واستخدام السجع كآلية ساهمت في ضبط التناظر القائم بين المعادلات النحوية، وضمان تماسك أجزاء الخطاب، وتوجيه نحو هدف واحد، وهو شدّ انتباه المتلقي والسيطرة عليه من خلال الموسيقي المسخرة في الخطاب، فالتساوي العددي للعبارات مع توافقها في الفواصل، من شأنه تحقيق المقاصد التداولية تتمثل في إثارة انتباه مستمع قد لا يكون في بعض السياقات مستمعا.

2- القسم

لا تنظر الدراسات التداولية إلى القسم بحدّ ذاته، وإنما يُراد الغرض التواصلي الذي يدفع المخاطَب إلى الوثوق بكلام المخاطِب[28]، فيلجأ المتكلم في الكثير من الأحيان إلى توكيد كلامه عن طريق القسم الذي يُعدّ فعل حجاجي يُثبت من خلاله الخطيب مجموعة من القضايا والأفكار.

وقد تحققت الأبعاد التداولية لهذا الأسلوب في قول النبي صلى الله عليه وسلّم **(فو الذي نفس محمد بيده)** فاستطاع من خلال هذا القسم توجيه الملفوظ وُجهة حجاجية نظراً لليقينية التي يتمتع بها عند المتلقي، ولاسيما أنه صادر من النبي صلى الله عليه وسلّم ممّا أكساه قيمة حجاجية إقناعية مضمونة النتائج.

3- البعد الحجاجي للتركيب الاستفهامي

[28] يُنظر، عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، دار الفارابي، تونس، ط،1، 2011، ص320

يرى ديكرو أن الغاية من الاستفهام تتمثل في أن على المخاطَب به إجابة محدّدة يمليها المقتضى الناشئ عن الاستفهام، فيتّم توجيه الحوار الذي نخوضه معه إلى الوُجهة التي نريد، فالاستفهام في الكلام غالبا ما يأتي لإجبار المخاطَب على الإجابة وُفق ما يرسمه له البعد الاستفهامي الاقتضائي[29].

ونجد هذا النوع من الاستفهام في قول النبي صلى الله وسلّم: **(ألم أتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم)** فالمخاطب في مثل هذا النوع من الأسئلة يكون مساهماً في إنتاج الحجج وصناعتها، ثمّ يعود ليخضع لها ويتقيّد بها، فالقيمة الحجاجية لمثل هذه النماذج الاستفهامية أنّ أجوبتها معلومة عند كل من الخطيب والمتلقي بحيث لا يختلفون في لأنها موجودة سلفاً في السياق الاجتماعي. ولا يخالفونه فيها نظراً لطبيعتها التقريرية، لأنّ النبي في الحقيقة لا يطلب إجابات، بل يبحث عن إقرار المتلقي، لذلك نجد أن إجابات الأنصار كانت حجة عليهم، وإفحاما لهم، واعترافا منهم بفضل النبي بقولهم: **(لله ولرسوله المنّ والفضل).**

4- الروابط الحجاجية في الخطبة

اقترح ديكرو وصفا جديداً لعمل الروابط اللغوية، وذلك من خلال إعطائها بعداً حجاجيا، نظراً للتماسك والتسلسل الذي تُحققه في الخطاب، وغالبا ما تقوم الروابط الحجاجية على الربط بين قولين، أو بين حجتين، أو أكثر[30] وتكون هذه الأقوال المترابطة برابط واحد، تسير في اتجاه واحد خدمةً لنتيجة واحدة يسعى الخطيب لإقناع المتلقي من خلالها، كما تُعدّ الروابط الحجاجية، **(المؤشر الأساسي والبارز والدليل القاطع على أن الحجاج مؤشراته في بنية اللغة)**[31].

ويُكثر النبي صلى الله عليه من استعمال الرابط الحجاجي (الواو) في خطبته، نظراً للتنسيق والترتيب التي تقوم به في الخطاب، ويتجلى ذلك في قوله: **(ألم أتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم)**، ويكمن البعد الحجاجي للرابط (الواو) هنا، في الربط بين الوحدات الدلالية في إطار استراتيجية حجاجية تخدم نتيجة واحدة، يُريد النبي صلى الله عليه وسلّم إيصالها للأنصار، فالحجة (أ) والحجة (ب)، والحجة (ج) في القول أعلاه والموصولة بالرابط (الواو) جاءت لخدمة نتيجة واحدة مضمرة تتمثل في فضل النبي على الأنصار.

5- العوامل الحجاجية في الخطبة

تطلع العوامل الحجاجية بمهمة **(حصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما)**[32] فتساهم بذلك خدمة نتيجة واحدة، وتوجيه جُل الحجج نحوها، كما تساهم في إقصاء دلالات خطابية معارضة، لصالح دلالات أخرى يريد الخطيب إثباتها، لذلك يطلع العامل الحجاجي بتقوية درجة التوجيه في الخطاب، من خلاله ربطه بين الحجة والنتيجة[33]

[29] يُنظر، ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب السياسة والإمامة لابن قتيبة، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، ص 304

[30] يُنظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط، 1، 2006، ص26

[31] نفسه، ص 55

[32] نفسه، ص27

[33] يُنظر، عزالدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقص، 2011، ص37

يقول النبي صلّى الله عليه وسلّم: **(لولا الهجرة لكنت امرئ من الأنصار)**، فالمتأمل في العامل الحجاجي (لولا) يجد أنه يضطلع بوظيفة استدلالية قامت بتوجيه الخطاب نحو دلالة معينّة، مفادها بأن النبي صلّى الله عليه وسلّم ليس من الأنصار بل من المهاجرين، ويمكن التمثيل لذلك بـ

المقدمة الكبرى ـــــــــ لولا الهجرة لكنت امرئ من الأنصار

المقدمة الصغرى (مضمرة) ـــــــــ لكنني مهاجر

النتيجة (مضمرة) ـــــــــــ لست من الأنصار

فالعامل الحجاجي (لولا) قام بحصر وتقييد وُجهة الخطاب نحو دلالة واحدة معيّنة مقصودة مفادها أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم ليس من الأنصار لأنه مهاجر، فالعملية الاستدلالية التي ساهم في بناءها هذا العامل الحجاجي (لولا) قامت بإقصاء دلالة أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم شخص من الأنصار، وتقوية نتيجة أنّ النبي شخص من المهاجرين.

الخاتمة

لقد أبانت المقاربة البلاغية الحجاجية اللغوية عن مرونة كبيرة في التعامل مع النصوص الخطابية، نظراً لما توفره من إمكانات تتيح الكشف عن أهم الخصائص التي تميّز الخطبة، فساعدت على رصد مختلف الحجج البلاغية والحجاجية واللغوية، فساهمت هذه الحجج يتضح بشكل كبير في توجيه الخطاب نحو مقاصده التداولية، وتحقيق أبعاده الحجاجية، وخير دليل على ذلك هو بكاء الأنصار حتى اخضلت لِحَاهم، وقبولهم بالنبي صلى الله عليه وسلّم قسمةً بدل الغنائم.